

مواجهة الجوع في بلاد المغرب خلال عصر الموحدين
بين الإجراءات العقلانية والذهنيات الخرافية

Confronting hunger in the Maghreb during the Almohad era between rational measures and superstitious mindsets.

عبد العزيز رشيد - المدرسة العليا للأساتذة العلامة الشيخ مبارك بن محمد أبراهيمي الميلي الجزائري - بوزريعة
rachadachor@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2022 / 10 / 20 تاريخ القبول: 2023 / 04 / 06 تاريخ النشر: 2023 / 06 / 04

ملخص: كان الإنسان ولا يزال إلى يومنا هذا في صراع دائم من أجل البقاء بسبب التحديات الكثيرة التي تواجهه في محيطه الطبيعي والإجتماعي، نتيجة الجوائح المختلفة التي تتراوح درجتها خطورتها من منطقة إلى أخرى ومن زمن إلى آخر. ومن أخطر هذه الجوائح، المجاعات التي أزقت الإنسان منذ القدم. وقد أدرك الإنسان المغربي خلال المرحلة الوسيطية أهمية الغذاء في استمرار الحياة وتجنب المصير المحتوم، وهو الموت، فحاول بكل الوسائل تجنب تداعيات المجاعات من خلال اتخاذ إجراءات عقلانية، أثبتت نجاعتها في توفير الطعام والتخفيف من حدة الجوع، ومن أهم هذه الإجراءات الإهتمام بالزراعة خاصة زراعة الحبوب، وما يتبع ذلك من تخزين خلال السنوات السمان تحسبا للسنوات العجاف. لكن إذا اشتدت المجاعة وطال زمانها، تضررت بسببها كل فئات المجتمع، وهنا يبرز دور التأزر خاصة من قبل الحاكم والطبقات الميسورة في التخفيف من معاناة المتضررين منها، كما انخرطت فئة الفقهاء والصلحاء والمرابطين والتجار في عملية الإنقاذ، من خلال تقديم الدعم للمعدومين وإطعام الجوعى. لكن يبدو أن كل الإجراءات سالفة الذكر لم تكن أحيانا تجدي نفعا أمام شدة المجاعات التي كانت تحصد أرواح الكثير من الناس، وعندما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة الخطيرة، تجده يبحث عن كل الحلول الممكنة للنجاة، بما فيها الروحانية الغيبية، أو الذهنيات الخرافية بغض النظر إذا كانت تتطابق مع الشرع أو تتنافى معه.

كلمات مفتاحية: المجاعة - بلاد المغرب - عصر الموحدين - الإجراءات العقلانية - الذهنيات الخرافية.

*- المؤلف المرسل

Abstract:

Since ancient times man has been in strunggle for survival because of disasters .One of the most dangerous of these desasters are famines . During the middle Ages ,the Maghrebin man realized the important of food in survival ,he tried by all means to avoid the supercussions by taking rational measers that prouved effective in alleviating hunger the most important of which is the interest in cultivating grain and storing it in anticipation of the lean years. However, if the famine intensifies and lasts for a long time, as a result of which all segments of society are affected, then the role of rulers , merchants and notables is highlighted in alleviating its severity . However, it seems that the aforementioned measures were sometimes of no benefit in the face of severe famines and then you find people looking for all possible solutions for survival and then you find people looking for all possible solutions for survival uncluding unseen spirituality,or superstitious mentalities .

Key words : The Almohad era –The Maghreb-Famine –Rational actions - Superstitious mindsets.

مقدمة :

كان الإنسان المغربي خلال العصر الوسيط وبالتحديد في عصر الموحدين يعاني من التردد الدوري للمجاعات ،وما ينتج عنها من آثار مدمرة قد تصل إلى هلاك الآلاف من الناس. وأمام هذه الجائحة الخطيرة كان على المغاربة إيجاد الحلول المناسبة للتخفيف من حدتها ، فما هورد فعل الإنسان المغربي عندما يقف عاجزا أمام معضلة الجوع، وما هي الحلول التي كان يلجأ إليها، وهل كانت عقلانية شرعية ، أم أنها في بعض الأحيان كانت غيبية خرافية تتعارض مع المنطق والشرع معا ، وما هو تفسير هذا السلوك ؟.

ظل الغذاء في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط يخضع على نحو دائم لظروف مناخية سيئة ، متأثرا بالجوائح البشرية من حروب وثورات وفتن ،ساهمت أكثر في حدوث المجاعات ومعاناة الإنسان من تبعاتها . والمتصفح للواقع التاريخي يلاحظ تفاوتاً بشأن نسبة تردد الكوارث الطبيعية، ومع ذلك فإن القرائن والشواهد تثبت المحن التي قاساها الإنسان ، جراء مضاعفات هذه الكوارث وتأثيراتها السلبية على

الوضعية الغذائية ،مما كان يفرض عليه تسخير كل إمكانياته للدخول في رهان مع هذه التبعات سعيا لضمان حقه في الحياة من خلال تحصيل الأقوات .

1 - تعريف المجاعة :

تعددت التسميات والمصطلحات التي أطلقت على لفظ المجاعة، وإن كانت كُلُّها تصبّ في مفهوم واحد يدل على حالة مرتبطة بنقص الغذاء أو انعدامه، ونقيضه الشيع¹. وهي ظاهرة شهدتها مختلف الشعوب والدول والحضارات على مرالزمان، وكانت لها انعكاسات خطيرة على الأوضاع الإقتصادية، والإجتماعية، وحتى السياسية.

ويدل الجوع أو المجاعة في مصطلح المؤرخين على الندرة في الغذاء والمحاصيل باعتبار المجاعات نتيجة لقلة الأقوات²، والمجاعات في سجل تاريخ الغرب الإسلامي كثيرة حتى سُميت بعض السنوات بعام المجاعة³.

2-كرونولوجية المجاعات ببلاد المغرب خلال العصر الموحي وأثارها :

كانت المجاعة تثير اهتمام المؤرخين وتجعلهم يصفون المخلفات السلبية لها على الأوضاع الإقتصادية⁴ والإجتماعية، وحتى السياسية⁵. لكن معظم المصادر إفادتها محدودة، فكتب النوازل اكتفت في الغالب بالإشارة إلى بعض الظواهر الإجتماعية المرافقة للمجاعات⁶، أما كتب التراجم والمناقب فركزت على ذكر سنة المجاعة في ثنايا الحديث عن وفاة عالم أو رجل صالح، أو عند طلب الإستسقاء من الولي أيام القحط، أو ضمن⁷ الكلام عن مساعدة الأولياء للجوعى أيام المجاعات والكرامات المرافقة لذلك⁸، كإحلال البركة في الطعام القليل ليكفي طيلة المجاعة، وانعكاساتها العامة، ومنها التأثير على الأنشطة الإقتصادية، وهذا شيء طبيعي إذا علمنا أن الحديث عن المجاعات لم يكن من دواعي التأليف في التراجم وأدب المناقب⁹.

وقد حاولنا رصد أخطر المجاعات في العصر الموحي ووضعناها في جدول من خلال كتاب البيان المغرب لابن عذاري، الجزء الثالث، والكامل في التاريخ لابن الأثير، الجزء العاشر، ثم حاولنا استنتاج أبرز الآثار التي خلفتها في شتى المجالات.

سنة وقوع المجاعة	المصدر	مكان وقوعها	آثارها من خلال نصوص مصدرية
576هـ / 1180م	- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج 10 ، ص 104	إفريقية	كانت سنة مجدبة تعذر القوت على عسكر الموحدين وعلى الدواب في إفريقية مما دفع يوسف بن عبد المؤمن إلى مهادنة صاحب صقلية لمُدّة.
616هـ/1219م	ابن عذاري، البيان المغرب، القسم	لم يحدد إقليما أو مدينة بعينها	وفي سنة ست عشرة وستمئة كان المحل العظيم والمجاعة التي شكاهها الضائع

مواجهة الجوع في بلاد المغرب خلال عصر الموحدين
بين الإجراءات العقلانية والذهنيات الخرافية

الموحدي، ص 267-266	والمقيم وتنتهي الحال في مزيد من السعر إلى ما لا نهاية له.	
ابن عذاري، ص 320-318	فتنة الخلط وحصارهم لمراكش	ضاققت الأرض بما رحبت لانقطاع المرفق والمواد ، وارتفعت الأسعار وانعدمت الأقوات
ابن عذاري، ص 326-325	مراكش	واستولت المجاعة على جمهور الناس ورأوا محنا يستعاذ منها ..حتى أنها هلكت أمم لا تخص .
ابن عذاري، ص 351	أكثر بلاد الغرب خاصة سبتة، أحواز مكناس وفاس	كان الغلاء المفرط والمجاعة العظيمة بمدينة سبتة ..وكان أشد ضررا في تلك الجهات..بالإختلاس والإقتراس لا سيما بأحواز مكناس فاس

نستنتج من خلال الجدول ، واعتمادا على المصدرين المذكورين سالفاء، أن المجاعات التي تعرضت لها بلاد المغرب كانت لها آثار خطيرة في شتى المجالات ، منها :

-ارتفاع أسعار المواد الغذائية لقلّة عرضها في الأسواق ، بسبب سنوات القحط التي كانت تضر بالمحصول الزراعي خاصة الحبوب . ولا شك أن المتضرر الأول هي الفئات الاجتماعية الضعيفة التي يتعذر عليها شراء المواد الغذائية .

-هلاك الناس بأعداد كبيرة إذا اشتدت المجاعة وطال أمدها ، خاصة إذا تجاوزت سنتين أو ثلاث سنوات لنفاذ مخونهم من الطعام .

-المجال السياسي ، فقد تجبر المجاعة المتحاربين على وقف الإقتتال واللجوء إلى الهدنة ، وما يترتب على ذلك من تنازلات قد تصل إلى حد خسارة الحرب ، مثلما حدث مع عبد المؤمن بن علي الذي اضطر إلى مهادنة صاحب صقلية للحفاظ على جيشه الذي تضرر نتيجة تعذرات الأقوات .

وغيرها من الآثار والإنعكاسات السلبية والخطيرة لنقص الغذاء والمجاعات التي عرفت بلاد المغرب خلال العصر الوسيط عامة والفترة الموحدية على وجه الخصوص .

وما يمكن استخلاصه أن المجاعة ترتبط بالمردود الزراعي، وكمية المواد الغذائية المخزنة. وكمية الأقوات ونفاذها أو بقاؤها، يتوقف على طول زمن المجاعة أو قصره، فإذا توالى سنتان من الجفاف فإن ذلك يؤدي

إلى حدوث المجاعة، وإذا استمر الجفاف ثلاث سنوات فتلك لأمحالة الكارثة، إذ كانت تنفذ المؤن والمدخرات، وترتفع الأسعار وتحدث المجاعة¹⁰. كما أن الأسباب والجوائح البشرية من فتن داخلية وحروب وتدخلات خارجية، لا تقل خطورة عن الجوائح الطبيعية، بل ربما تتجاوزها في بعض الأحيان¹¹.

وهذا ما نستنتجه من خلال ما ذكره ابن عذاري عندما تحدث عن بجاية بعد دخول بنو غانية إليها سنة 581 هـ/ 1186 م حيث يقول: « لما وقعت الفتنة ببجاية وأقطارها، وانتهبت زروعها وغلاتها، وقلّت خيراتها وعدمت أقواتها، وألم بالريعية الحيف.. فأقفر من بجاية بسائطها، وقلّت مادتها وعلت أسعارها، وجاوز تقتيرها النهاية فتسلل من القبائل خيلا ورجلا معظم سوادهم وتسربوا مع الأيام فرارا من الإعدام إلى أقطارهم. والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عمّ الموتان وبطرت معيشتها الرخم والعقبان. وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء»¹². وكانت العامة من أهل بجاية تخرج في مراسم الجنازة للقيام بطقوس معينة مع تهليل وتكبير ودعوة إلى حضور الجنازة التي كانت تمتزج فيها مشاعر الحزن بالطقوس الدينية¹³.

3- الطرق العلمية العقلانية في مواجهة الجوع :

أمام التردد الدوري للمجاعات في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط ، كان الإنسان المغربي يلجأ إلى وسائل مختلفة لمواجهتها والتخفيف من حدتها . ومن أبرزها وأهمها ، النشاط الزراعي الذي يعد أساس إنتاج الحبوب التي تعدّ الضمان الأول لتوفير الغذاء.

1-3- الإهتمام بالزراعة :

بما أن الزراعة هي أساس توفير الغذاء ومواجهة المجاعات ، فقد تركّز اهتمام الشعوب والدول بها منذ فجر التاريخ . لقد كانت في بدايتها بسيطة بساطة حياة الإنسان القديم ، ثم أخذت تتطور عبر العصور بتطور الفكر البشري وازدياد حاجته إلى الغذاء، لإطعام الأعداد المتزايدة من السكان، سواء في الأرياف أو في المدن ، ولم تشذ بلاد المغرب خلال العصر الوسيط عن هذه القاعدة .

1.3.1 - استصلاح الأراضي :

رغم وجود الأراضي الخصبة في مختلف جهات بلاد المغرب إلا أن الأراضي البور كانت تحتل حيزا واسعا، وهذا النوع من الأراضي وإن كانت طيبة فهي غير صالحة للزراعة إلا بتحريك أو تزييل الإنسان لها¹⁴، ويُسمّى الفقهاء الأراضي الموات¹⁵، وهي تلك الأراضي التي يقطعها السلطان أو ولي الأمر لمن يحبها¹⁶. ويكون إحياء الأرض الموات بثلاثة شروط كما يذكر الماوردي، وهي :- جمع التراب المحيط بها حتى يصير حاجزا بينها وبين غيرها - سوق الماء إليها إن كانت يبسا وحبسها عنها إن كانت بطائح حتى يمكن حرثها وزرعها-والحرث الذي يجمع إثارة المعتدل وكسح المستعلي¹⁷.

وقد كان الحكام يسمحون بإحياء الأراضي حتى قرب المناطق العمرانية، إذا لم يسبب ذلك ضررا للسكان¹⁸. وأولى الموحدون عناية خاصة بهذا النوع من الأراضي، ولم يهمل خلفاؤها، منهم عبد المؤمن أرضا صالحة للزراعة¹⁹، وقد أشارت المصادر إلى أراضي كثيرة استُصلحت واستُغلّت في الفترة الموحدية ، فقد أنشأ

الموحدون بحائر²⁰ كثيرة في السهول والجبال في بيئات المغرب الثلاث²¹، وركز المنصور اهتمامه على مراكز وبجاية²²، واهتم الناصر بتلمسان وقسنطينة²³.

1. 3. 2 - تقديم النصائح للفلاحين :

لكي يقوم الفلاح بعمله على أكمل وجه، وتنتج أرضه الغلة اللازمة ، يحتاج إلى حسن التعامل مع الأرض، والتعريف على التقنيات الزراعية منذ بداية الحرث، وصولاً إلى مرحلة الحصاد وجني المحصول. ولا شك أن الفلاح المغربي في العصر الوسيط قد ورث عن أجداده كيفية زراعة الأرض، كما استفاد من تجاربه الشخصية من خلال تعامله المباشر مع الأرض، ورغم ذلك فقد كان بحاجة مستمرة إلى النصائح والإرشادات ليتقن أكثر التعامل مع أرضه ويتكيف مع الظروف الطبيعية التي كانت ولا تزال تؤثر سلباً على النشاط الزراعي²⁴، ونتيجة الإزدهار الحضاري الذي عرفه المغرب الإسلامي خلال القرون الأولى للعصر الوسيط، والتطور الذي عرفته جميع مجالات المعرفة، سمح ذلك بتطوير المجال الفلاحي. والحديث عن تقديم النصائح للفلاحين من أجل الإستغلال الجيد لأراضيهم يجرّنا حتماً إلى التطرق إلى التأليف في المجال الفلاحي.

لم تُسجّل المصادر قبل الموحدين ما يُشير إلى التأليف في مجال الفلاحة، كما أن ما أُلّف كان من طرف الأندلسيين دون غيرهم، لكن مما لا شك فيه أن المغاربة قد استفادوا مما احتوته كتب الفلاحة الأندلسية، بحكم عملية التأثير والتأثر بين الأندلسيين والمغاربة في شتى المجالات. ومن أبرز المؤلفات الفلاحية الأندلسية كتاب الفلاحة لابن العوام الذي احتوى مادة علمية غزيرة وهامة²⁵، تخصّ الأعمال الزراعية والطرق العلمية الكفيلة بتطوير الزراعة، وجعلها أكثر مردودية، بالإضافة إلى كتب فلاحية أخرى منها كتاب المقنع لابن حجاج الإشبيلي، الذي يتضمّن عرضاً مستفيضاً عن طرق الزراعة والعناية بالأشجار، وزراعة الحبوب والثمار والأزهار، وكيفية الري، والتسميد لتخصيب التربة واختيار البذور، والري²⁶، وغيرها من الطرق التي تساعد الفلاح على خدمة أرضه كما يجب، وزهرة البستان ونزهة الأذهان لمحمد بن مالك الطغفري، وكتاب الفلاحة لابن البصال.

وقد استفاد علماء الفلاحة المسلمون من علوم الأوائل في المجال الفلاحي، وكان لازدهار الترجمة بالغ الأثر في ذلك، كما استفادوا من تجاربهم الشخصية في الفلاحة العلمية، ومن مشاهداتهم أثناء رحلاتهم الإستكشافية، قبل أن يساهموا في إغناء التجربة الإنسانية بالكثير من الإضافات ويخلّفوا تراثاً علمياً ثرياً²⁷. وقد أمكن من خلال هذه الكتب الفلاحية الوقوف على التطورات التقنية مثل تخصيب التربة، ووسائل السقي، وتجفيف المستنقعات، وتهجين سلالات الماشية، وتركيب الأشجار، ومقاومة الآفات، وغير ذلك من الأعمال الفلاحية والتجارب العلمية والمبتكرات الفنية²⁸. وقد ساهمت كتب الفلاحة في التخلص من الفكر

الخرافي²⁹ والإرتقاء العلمي بالفلاحة، كما يبدو واضحا في المقاييس المعتمدة لتصنيف التربة والمياه والبذور والمحاصيل، وفق مجموعات ذات خصائص وصفات متميزة³⁰.

وقد وجد علم الفلاحة ضالته في ميول السلاطين لإقامة الحدائق الملوكية، وهو ما أتاح للتقنيين والمهندسين الزراعيين فرصة لتجريب معارفهم النظرية، خاصة وأن ملوك المغرب والأندلس جعلوا الفلاحة أساس الإقتصاد الوطني. ولا شك أن الموحدين قد اعتمدوا على ما احتوته مؤلفات الفلاحة لتقديم النصائح للمزارعين، وكان عبد المؤمن بن علي أول من اهتم بهذا الجانب، حيث كانت الدولة تسدي لهم النصائح العلمية حتى تعطي الأرض غلة وفيرة، تكون قادرة على تلبية احتياجات الناس والدولة من الغذاء، وتجاوز ذلك إلى تطوير البستنة والجنان التي أولاها حكام تلك الحقبة اهتماما كبيرا واعتبروها من مظاهر الحياة الرغيدة³¹ فاهتموا بالري وجلب المياه إلى المدن والبساتين³².

1. 3. 3 - الإهتمام بوسائل الري :

يتميز مناخ بلاد المغرب عامة بالجفاف أو تذبذبات التساقط من سنة إلى أخرى ومن منطقة إلى منطقة، مما كان له تأثير سلبي على النشاط الزراعي ومردودية الأرض، وهذا ما دفع السكان من أقدم العصور إلى الإهتمام بوسائل الري. وأبرز معالم النهضة العمرانية في فترة ازدهار دولة الموحدين تتجلى في عمليات جلب المياه للمدن والمؤسسات والمزارع³³، حيث عمل الموحدون على استنباط المياه من باطن الأرض وتوصيلها من أماكن توقرها إلى مناطق الزراعة³⁴. وقام أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور ببناء القناطر والجباب للماء³⁵، كما أقام ابنه محمد الناصر منشآت مائية في كل من تلمسان وقسنطينة³⁶. ومن المنجزات التي قام بها الموحدون في مجال الري هو جر المياه من المنحدرات الجبلية بعد تنقيتها من الحجارة والأشجار، مثلما حدث في سهول بني راشد بنواحي تلمسان³⁷.

2. 3 - تخزين المواد الغذائية :

من أبرز الوسائل التي لجأ إليها سكان بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، حاكمهم ومحكومهم لمواجهة المجاعات، تخزين المواد الغذائية خاصة الحبوب تحسبا لندرة الغذاء وحدوث المجاعات، وقد اختلفت أنواع المخازن أو المطامير وتنوعت ما بين مخازن رسمية، جماعية أو فردية³⁸. وكانت تفاوتت ثقافة الإذخار في مجتمعات المغرب الإسلامي خلال العصور الوسيط في المكان والزمان، كما اختلفت طرق التخزين باختلاف أماكنها، والظروف المناخية السائدة فيها³⁹.

كانت مطمورات الحبوب الجماعية تُقام عادة خارج المدن أو بمحاذاة المساجد في البوادي⁴⁰. وكانت أرض بعض المناطق تحفظ الحبوب لمدة طويلة، تبدأ بثلاث سنوات أو أكثر تبعا لطبيعة المواد المخزنة ونوعية التربة، وقد فضل ابن العوام التربة البيضاء، الجافة الباردة لأنها أكثر ملاءمة للتخزين⁴¹. وكان بعض أهل المغرب يتخذون المطامير في الأرض الصخرية الصلبة⁴².

ونظرا لأهمية تخزين الحبوب في حياة إنسان المغرب ومصيره، فقد حرص على معرفة كيفية إقامة وهيئة المطامير انطلاقا من معرفته ببعض خصائص التردد الدوري للكوارث، فضلا عن استفادته من تجارب علماء الفلاحة . وانطلاقا من هذه الخبرة صقل موهبته في بناء المخازن لضمان سلامة الأطعمة المدخرة⁴³.

وقد حرص السكان على بناء هذه المطامير لصيانة المواد المدخرة من الإصاغة بالتلف، وفق شروط تأخذ بعين الإعتبار المناخ، حيث أن أخطر ما يمكن أن يتسبب في إتلاف الحبوب هي الرطوبة التي تصيبها بالصدأ، لهذا حرص المهندسون على ضرورة توفر التهوية اللازمة لسلامة المدخرات من التغير والفساد⁴⁴، ففي المناطق الباردة كانت الرطوبة المفرطة من بين الآفات المهددة للمواد المدخرة، بسبب انعدام أوقلة منافذ التهوية، مما كان ينتج عنه تلقيح الحبوب، وإنباتها من جديد، أو تعرضها لآفة التسوس في حالة شدة الحرارة⁴⁵، ولهذا كان أصحابها يتركونها مفتوحة في فصل الصيف حين إفراغها من الحبوب بهدف التهوية والتشميس، وتارة تُصاب بالعفن والتحلل⁴⁶، ولهذا بعد بناء الأهراء كانت تُستعمل بعض المستحضرات والأعشاب الطبيعية لتعقيمها من الآفات⁴⁷.

واعتادت الرعية وخاصة سكان المدن على التخزين لأسباب طبيعية بسبب التردد الدوري للجفاف، كما أن الأزمات السياسية كانت أيضا تجبر الناس على هذا الإجراء كسكان فاس الذين اضطروا لاتخاذ المطامير في بيوتهم لخزن الحبوب في منتصف القرن 5 هـ / 11م بسبب جور مغراوة⁴⁸.

كما أن سكان سبتة رغم توفرهم على ميناء لجلب الحبوب فإنهم اضطروا لإحداث مطامير لاختزان الطعام فيها عام مسغبة سنة 637 هـ / 1239م، وهو عام مشهور عندهم⁴⁹. كما اعتاد الأفراد على اتخاذ مخازن الحبوب في مدينة سجلماسة في القرن 6 هـ⁵⁰.

واهتم أيضا سكان البادية بالتخزين من خلال اتخاذ قصبات جماعية لخزن الحبوب، لكن المخازن الآمنة نسبيا هي مخازن القبائل الجبلية، وذكر الإدريسي أن بجيل درن وحدها أزيد من 70 حصنا⁵¹، حيث أمرت السلطة الموحدية بإنشاء مستودعات على طول المسالك التي ترتادها الجيوش في طريقها إلى مواجهة العدو. وكان هذا الصنف من المخازن عبارة عن منازل ومستودعات باطنية وسطحية⁵².

وكان عبد المؤمن شديد الإهتمام بأمر تموين جيشه، ويُستشف هذا من الرسالة التي وجهها لولائته في سياق استعدادده لغزو إفريقية عام 550 هـ / 1155م فأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات، وأن يُترك الزرع في سنبله، ويُخزّن في مواضعه، فجمعوا غلات حب ثلاث سنين، ونقلوها إلى المنازل التي على الطريق، وطينوا عليها فصارت كأنها تلال⁵³.

وتحدث ابن الصلابة عن عجز هذه المستودعات الرسمية عن استيعاب الحبوب لكثرتها وبقيت مكشوفة ست سنوات إلى أن اعترها الفساد. يقول: «وأعدّ - أي عبد المؤمن بن علي- من القمح والشعير للمعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سيبو ما عاينته مُكدّسا كأمثال الجبال بما لم يتقدم لملك قبله ولا

سمعناه في جيل من الأجيال، بقي مُعدًا من عام 557 هـ / 1162 م إلى عام 562 هـ / 1167 م حتّى فني في أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراق بعضه في بعض وإفساد الزمن له إفسادا»⁵⁴.

ونظرا لحساسية تدبير المخازن، أُسند الإشراف عليها لِعُمّال المدن وولّاة الأقاليم، مع بقاء الإشراف العام بيد الأمراء والخلفاء⁵⁵، فذكر بن صاحب الصلاة أنّه في الليلة التي توفي فيها الخليفة عبد المؤمن بن علي، بُويع أبو يعقوب يوسف خلفا له، وحاز المخازن والأموال⁵⁶.

وبقدر ما أغدق الخلفاء على وُلاة المخازن بقدر ما تشدّدوا في معاقبة من يتهاون في رعايتها، وقد وجد الخليفة عبد المؤمن بعض مظاهر الفساد المالي المتفشّي في البلاد وذلك عن طريق بعض الجُباة والعَمّال الذين يفرضون على الناس المغارم والمكوس، فهَدّهم أشدّ تهديد وحذّر الشيوخ والطلبة من التهاون في محاسبتهم ومعاقبتهم، مثلما جاء في رسالة العدل التي بعث بها عبد المؤمن إلى وُلاته جاء فيها: «وأن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد، ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الإصرار، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك فيعيثون فيها..ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا أو كثيرا إلّا بعد استئذاننا، وهذا الأمر منّا لكم»⁵⁷.

وتابع خلفاء عبد المؤمن سياسته في محاسبة المشرفين على سوء تصرّفهم في النواحي المالية والمخازن، وفي هذا الصدد أورد ابن عذاري أن الخليفة أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن تفقّد المخازن عام 579م/ 1183م، وهو عام شدّة وضيق، فلما فُتحت المخازن لمساعدة الرعايا على تجاوز محنتهم، وتكسير حاجز الغلاء ثبت للمخزن تعرض بعضها للنهب من طرف العمال، منهم خازنه على الطعام، فبالغ الخليفة في محاسبتهم وأودعهم السجن، وصادر أموالهم وأملاكهم⁵⁸.

ورغم الإهتمام الذي أولاه الموحدون بمخازن الغذاء إلا أن المصادر اكتفت غالبا بالإشارة إلى حدوث مجاعة أو قحط أو أي جائحة شهدتها بلاد المغرب خلال المرحلة المدروسة دون التطرق إلى دور السلطة أثناء ذلك، وإن حدث وأن أشارت فإنّها لا تذكر حيثيات هذا الدور ومستوياته، كقيامها بالتوزيع الفوري للمساعدات من الطعام على الفقراء والمحتاجين، أو تخفيف الضرائب عن كاهل الرعية في الأيام الأولى لظهور بؤادر المجاعة، ممّا يدلّ على غياب مثل هذه المساعي، رغم أن الموحدين كانوا أكثر حرصا على مساعدة الزراع وقت الحاجة⁵⁹.

فمن خلال مجمل المصادر المطّلع عليها، لم نعثر كما يقول مهدي غويرغات، سوى على حالات نادرة تدخلت فيها السلطة بصرامة خلال عصر الموحدين بهدف تعديل الأسعار بسبب أزمات الغلاء، للتخفيف من معاناة الناس،⁶⁰ من هذه الحالات لما أصابت مجاعة كبيرة بجاية سنة 588 هـ / 1192 م بسبب غزو بني غانية⁶¹، خلال فترة حكم أبي يوسف يعقوب بن يوسف المنصور⁶²، فحاول الحاكم الموحدي للمدينة التدخل من خلال استعمال فندق تابع للدولة لجمع المواد الغذائية وتوزيعها على المحتاجين، وهذا بوساطة رجل صالح وجّه ندائه إلى نبلاء المدينة للمساهمة في هذه العملية. هذه الحالة تبيّن التعاون التطوعي المشترك بين

السلطة التي تتصرف كوكيل إقتصادي مركزة في يدها عملية المساعدة مع المحسنين الذين يشاركون في هذه العملية.

الحالة الثانية يذكرها ابن عذاري عند حديثه عن الخليفة الموحي المستنصر، عندما علم بحالة الرعية المزرية في دولته إبان مجاعة 616 هـ / 1217 م، حيث أمر بفتح المخازن المعدة لاختزان للطعام ففتحت للعمامة وفُرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمان للأقوياء، وبغير ثمن للضعفاء، فحسنت بذلك أحوال الناس⁶³.
والحالة الثالثة، وقعت سنة 634 هـ / 1232، فبعد سنوات الإنقسام والجفاف والمجاعة اتخذ الخليفة الرشيد المبادرة في إطار محاولة استعادة الحكم بإعادة تقييم جذري للعملة الموحدية، وساهم أرباب الدولة في أعمال الخير وتقديم المساعدة للناس وهذا ما أدى حسب المؤرخين إلى التخفيف عن الرعية نتيجة الغلاء الذي أصاب السلع في الأسواق⁶⁴.

نلاحظ ممّا سبق ثلاث حالات مختلفة لتدخل الدولة عند حدوث أزمة غذائية، وارتبط هذا التدخل بالمدينة، وهذا بالنسبة لاثنتين من أهم وأغنى المدن التابعة للإمبراطورية الموحدية، مراكش وبجاية. ومن المحتمل أن سكان الأرياف التحقوا بالمدينة على أمل الحصول على المساعدة، لكن بالنسبة للآخرين أي القاطنين في المناطق الداخلية البعيدة فيبدو أنهم لم يكونوا ضمن اهتمامات السلطة، ويُفهم من هذا أنه لم يكن الهدف المنشود هو وضع سلطة تعمل بجدية على مساندة مجموع الفئات الاجتماعية⁶⁵. ورغم ذلك لا يمكن نفي أنه كانت تُتخذ تدابير على المستوى الرسمي لتنظيم عملية الغوث والتخفيف من بؤس السكان⁶⁶.

4-مواجهة الجوع بين الممارسات الشرعية من جهة.والذهنيات الخرافية والممارسات المحرمة من جهة أخرى :

1-مواجهة الجوع بين الطرق الشرعية و الذهنيات الخرافية :

رغم كل التدابير التي كانت تتخذ سواء من طرف الأفراد والجماعات أو الحكام في المدن أو في الأرياف، إلا أن بعض المجاعات كانت من الخطورة بسبب امتدادها الزمني، بحيث كانت تتسبب في هلاك آلاف الأشخاص إلى أن درجة أن الناس كانوا يضطرون إلى المحظور شرعا، مثل أكل الموتى للنجاة بأنفسهم ، كما أنهم خلال هذه الأوقات العصيبة كانوا يشعرون بضرورة التقرب إلى الله لأنه الوحيد القادر على إنقاذهم بعد تعطل كل الأسباب .

1. 4-الطرق الشرعية :

1. 4. 1-ترك المعاصي والتقرب إلى الله :

عندما كان المغاربة يتعرضون إلى الأزمات ويواجهون الموت بأعداد كبيرة نشأ شعور راسخ لديهم بأنه لا يمكن حدوث انفراج في الأزمة إلا بإرضاء الرب الغاضب، فمهرع الناس إلى المخزون الديني من خلال إظهار التوبة والإقرار بالذنب كمرتكز أساسي لرفع القحط وجلب الغيث.⁶⁷

وتؤسس الروايات المنقبية لمسؤولية الإنسان وضلوعه في حصول الكوارث التي تصدر في شكل عقاب عما اقترفه من ذنوب، ذلك أن النموذج الذي يُقدّمه الأولياء لرفع غضب السماء، بما فيه من إقرار بالمعصية وبكآء وإلحاح في التضرّع بالله، إنما يُشكّل رسالة مُوجّهة للعوام للتخلص من الذنوب والتحصّن بالدين⁶⁸، ولهذا كلّما عصفت كارثة إلاّ وخاف الناس وارتدعوا عن كثير من الفواحش، ولزموا المساجد للإستغفار والتضرّع لله بطلب اللطف بخلقه، ويكثرّون من أعمال البر والإحسان.⁶⁹

عندما عجز الإنسان المغربي خلال العصر الوسيط عن فهم القحوط والمجاعات، أخذ يبحث عن مُسبّباتها في عالم ما وراء الطبيعة أحيانا، أو ربطها بفساد النظام الإجتماعي أحيانا أخرى، عندما تكثّر المعاصي ويتمادى الناس في إعراضهم عن الطريق السوي⁷⁰، ومن هنا لم يُنظر إلى المجاعات على أنّها حادث طبيعي فحسب بل إشارة إلهية، وإنذار ضد انحرافات الناس، وجور الحكّام الذين لا يقفون عند حدود الله⁷¹، وسكوت الناس عن المنكر خاصة العلماء⁷². وممّا ردّده في هذا الصدد «إذا جار السلطان قحط المطر»⁷³، فقحط الموسم الفلاحي وتسلّط الجراد وانتشار المجاعات، كان يُفسّر على أنّه عقاب من الله⁷⁴،

هذه الأوقات الصعبة تركت آثارها على ذاكرة المجتمعات، وكانت تربط بين عدّة أنواع من الذنوب منها الرّدّة، تتسبب في المعتقد الشعبي في حدوث الزلازل وخسوف القمر، والإستبداد وعدم احترام الإتفاق مع أهل الذمة يُسبّب الجفاف، وعدم إخراج الزكاة يتسبّب في موت الماشية، والزّنى يسبّب كثرة الموت⁷⁵. وعلى العموم كل الكوارث والمصائب التي أصابت مجتمعات بلاد المغرب ترجعها الذاكرة الشعبية إلى أخطاء وذنوب الناس، حاكمهم ومحكومهم حسب القناعة السائدة في العصر الوسيط، ولهذا لم يكن بالإمكان تفاديها⁷⁶.

1.4.2 - صلاة الإستسقاء :

كانت صلاة الإستسقاء من الوسائل الشرعية التي يواجه بها السكان القحط وشح السماء، وهي سنة⁷⁷ اتبعها المسلمون منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن جاء بعدهم من التابعين. واعتبرت صلاة الإستسقاء وسيلة من وسائل التضرّع إلى الله والرجوع إليه طمعا في الفرج. ويروي الونشريسي أن موسى بن نصير استسقى بإفريقية، وخرج بالناس، يجعل الصبيان على حدة والبقر على حدة والنساء على حدة وأهل الذمة على حدة⁷⁸.

يبدأ تفاعل الناس عامّة والفقراء بصفة خاصّة مع بداية المجاعات الناتجة عن تأخّر نزول المطر أو انحباسه، بالإحساس بالحرج والشدة والتطلّع إلى السماء، أملا في الغيث إذا كانت الأزمة بفعل القحط، فيكثر الناس من صلوات الإستسقاء وتكرارها مرارا إلى أن ينزل الغيث⁸⁰.

كانت صلاة الإستسقاء تختصّ أكثر بالمناطق الزراعية شبه الجافة مثل فاس، مكناس، مراكش، وعليه فإنّ كرامة الإستسقاء هي نوع من أنواع البدائل عن الأُزمة⁸¹. وكانت أولى ردود الفعل لدى احتباس المطر تتّجه إلى محاولة تلافي غضب الله بالإبتعاد عن المعاصي وكل ما يغضبه. ويقصد الناس في صلوات الإستسقاء في الغالب فقها أوشريفا أو وليا صالحا، مُستجاب الدعاء، معروفا بالتقوى والعبادة، يؤم الناس في الصلاة⁸². وكان هؤلاء يستجيبون عادة لتصدّر جماعات المستمطرين، مع إمكانية إخراج مخزونهم من الطعام والتصدق به على المحتاجين، لأنّ التصدّر للإستسقاء والتضرع إلى الله، يتطلب منهم حسب الإعتقاد السائد ضرب المثل في مساعدة الآخرين⁸³، فإذا كان الله يجود على الإنسان بماء المطر الذي ينبت الزرع الذي يقوم بتخزينه، فليس من حقّه أن يمنعه عن المساكين⁸⁴.

وقد ذُكر عن الولي الحسن الحارلي (ت 673 هـ / 1239 م) أنّه عندما أصاب الناس جفاف ببيجاية دعا الله بأن يمطرهم فاستُجيب دعاؤه وأمطرهم مطرا غزيرا، وأخذ يغسل ويشرب منه ويقول: «مرحبا بقريب عهد برّته⁸⁵». وذكر ابن الزيات عند ترجمته للولي الصالح أبي زكريا بن يوغان الصنهاجي (ت 536 هـ / 1141 م) أنّ الناس خرجوا لصلاة الإستسقاء بتلمسان بسبب قحط أصابهم، فاستسقوا به فسُقوا⁸⁶. واجتمع الناس لأداء صلاة الإستسقاء وفيهم أبو محمد عبيد بن محمد الصنهاجي، فدعوا وتضرّعوا والسما صاحية لاغيم فيها، فقالوا: «يا أبا زكريا استسق لنا، فقام أبو زكريا ورمى بقلنسوته عن رأسه، وكان أقرعا، فقال: يارب هذا الأقرع يسألك الغيث، فمانزل الناس عن ذلك المكان حتى أمطروا مطرا غزيرا⁸⁷».

كانت صلاة الإستسقاء تُقام عادة عند الوقفة⁸⁸، وهو الوقت الذي يكون فيه بالإمكان إنقاذ المزروعات، ويتطابق زمنيا مع فصل الشتاء وبداية الربيع، ويُقابله وقت اليبسة، وهو الوقت الذي يكون فيه الجفاف قد تواصل زمنيا طويلا وأتلف المحاصيل، بحيث لم يعد أمل في إنقاذ المزروعات⁸⁹. ويذكر ابن الزيات أنّ الناس أجذبوا جدبا شديدا فجاءوا إلى أحد الزهاد الورعين فسأله الناس أن يستسقي لهم، فاستسقى لهم يوم السبت فسُقوا⁹⁰. ويُستشفّ من الكتب المنقبيّة التي تطرقت لكوارث الجفاف وندرة المياه أن الناس كانوا أحيانا يتوسّلون بوساطة الصلحاء في الإستسقاء أحياء وأمواتا، فبعد وفاة الشيخ أبي زكريا بن يوغان الصنهاجي سنة 537 هـ / 1141 م استسقى به أهل تلمسان فسُقوا⁹². ويُستحبّ حسب الإعتقاد السائد في ذلك الوقت أن تكون صلاة الإستسقاء مسبوقة بصوم ثلاثة أيام⁹³.

1. 4. 3 - التآزر ومساعدة المتضررين من المجاعات:

نظرا لتردّد المجاعات وما ينتج عنها من آثار وخيمة خاصة على الفئات الضعيفة، فقد كانوا يبحثون عن الحلول بشتى الطرق، ووجدوا في الأولياء خير بديل ومعين⁹⁴، وما شجعهم على ذلك تدخل الأولياء والصلحاء لمناصرتهم من خلال حضورهم الدائم إلى جانبهم⁹⁵.

وهناك فئة من الفقهاء والأولياء كانوا من متوسطي الحال لكنهم كانوا يتصدقون رغم إمكانياتهم البسيطة، حيث أتى رجل ممن عرضت له ضرورة قوت إلى أبي الحسن علي بن محمد الزواوي من علماء بجاية في القرن 7 هـ / 13 م ، فسأله أن ينظر له نظرا يستعين به، وكانت للرجل عائلة فدخل أبو الحسن إلى منزله، وأخرج له أربعة أمداد قمح⁹⁶. كما كان بعض الأولياء البسطاء يسعون ويتوسّطون لدى الأغنياء للحصول على المال والمساعدات المادية الأخرى لإعادة توزيعها على الفقراء، منها ما ذكره التادلي عن أحد أولياء بجاية حيث قصد أعيان وتجار بجاية إبان مجاعة 611 هـ / 1214 م ، وكلمهم واحدا واحدا لجمع المال من أعيانها، واكثرى فندقا بنحو ثلاثمائة دينار، ثم مشى بطرقات بجاية، فكلّم مرّ بمسكين دفع له ما يقيه، فلما اجتمع المساكين بالفندق اشترى لهم من اللباس ما يدفع عنهم البرد، واشترى لهم ما يقوم بهم من الطعام، وجعل عليهم قيما يقوم بهم، وأغناهم عن السؤال، إلى أن خصب الناس في العام الثاني فانصرفوا إلى مواضعهم⁹⁷.

وكانت ظاهرة مساعدة الأولياء والرجال الصالحين للمحتاجين في الظروف العادية أو خلال المجاعات منتشرة في كل أنحاء بلاد المغرب. كما أن دور التّجّار زمن المجاعات لم يكن دائما سلبيا، والذي تجلّى في اغتنامهم فرصة حدوثها لاحتكار السلع، ورفع الأسعار والإستغناء على حساب الطبقة العامة، فلا يجب التّعميم بالرغم من أن المصادر لم تتناول الحديث عن دورهم الإيجابي الذي ظل يكتنفه الغموض بسبب انعدام إشارات مصدرية لها دلالاتها⁹⁸.

2. 4 - الإنحراف الديني والذهنية الخرافية في مواجهة الجوع :

إنّ الصعوبات الطبيعية والمجاعات التي واجهها الإنسان المغربي خلال العصر الوسيط، أفقدته الثقة في نجاعة الأساليب العملية، بل وأبعدته أحيانا عن جادة الإسلام والعقيدة الصحيحة ، وأملت عليه ردود فعل متبينة اكتنفها الاضطراب والإرتباك، فهيمن عليه هاجس الخلاص من ضغطها بأي وسيلة مُتاحة، وتحقيق الحد الأدنى من الأمن بمفهومه العام وخاصة الأمن الغذائي، فكان ينقاد وراء كل صيحة هدفها تلبية حاجاته، والتخلص من هاجس الموت، مهما كانت خرافية⁹⁹ فلجأ إلى الممارسات السحرية والشعوذة، والتّنجيم¹⁰⁰.

وقد انتشرت هذه الممارسات بشكل لافت في جنوب المغرب الأقصى خاصة قبيلة أزقار، غير بعيد عن موطن المهدي بن تومرت، وهذا ما يؤكده عبد الواحد المراكشي الذي عاصره ، حيث يقول عنه أنه أوحده عصره في علم خط الرمل¹⁰¹. كما برز عند العوام خلال هذا العهد صنف من المشعوذين، ادّعوا فك الطلاس من خلال النظر في كتف الشاة، وعلم الأكتاف هو علم يبحث في الخطوط والأشكال التي ترى في أكتاف الظأن والماعز، إذا قوبلت بشعاع الشمس من حيث دلالتها على أحوال العالم¹⁰².

وتخصص بعض الدجالين المعروفين باسم المتوسمين في تفسير أسرار الطبيعة المكنونة في الكتف، منها التقلبات المناخية التي كانت أهم عامل مؤثر على النشاط الزراعي.

وقد تنبّه ابن خلدون إلى العلاقة الواضحة بين ضعف الوازع الديني وتدني مستوى الإدراك العلمي مقابل التعلّق بأحكام السحر والتنجيم، وسجّلها في مقدمته¹⁰³.

وفي الفترات الصعبة التي تعاقبت فيها السنوات العجاف غالباً ما كان الناس يقصدون المشعوذين والمنجّمين الذين كانوا يدّعون القدرة على بسط السيطرة على الكوارث الطبيعية، وفق طقوس يزعمون نجاعتها في استجلاب المطر، مثل تحديد الأسبوع الثاني من شهر دجنبر أو ديسمبر/ كانون الأول، مناسبة لسقوط المطر¹⁰⁴.

ومن خلال حيل هؤلاء وقع العوام في شرك الاستجابة لطقوسهم. وفي هذا الإطار دأب سُكّان غمارة¹⁰⁵ على الإستغاثة بالساحرات لاستدراار المطر¹⁰⁶، وهي عادة ترجع إلى القرن 4 هـ/ 10 م، ثم استمرت الذهنية السحرية إلى عصر ابن خلدون على الأقل مع الكاهنات اللواتي زعن القدرة على استجلاب المطر ومحاربة القحط، بقوله «وما زالوا ينتحلون السحر لهذا العهد»¹⁰⁷.

لقد شاع بين الناس نسبة الأمطار إلى سقوط نجم من النّجوم¹⁰⁸، وهو معتقد قديم قوّض الإسلام دعائمه في وقت مبكر¹⁰⁹، غير أنّه عاد للظهور متزامناً مع ابتلاءات الكوارث الطبيعية، حيث ساد الاعتقاد بأثر النجوم في حصول الإضطرابات المناخية، فاختصّت المناطق القاحلة في المغرب بطقوس سحرية قائمة على التخمين أنّ ما يحدث من كوارث لها صلة مباشرة بحركة النجوم¹¹⁰، وهذا الارتباط بالأحكام التنجيمية يعكس بقايا الجاهلية والمؤثرات الوثنية، البربرية والعربية الضاربة في عمق تاريخ المنطقة¹¹¹، ولذلك ذمّ ابن خلدون الإشتغال بها لما يترتب عنها من أضرار في العقيدة والعمران¹¹².

كما أن القبائل العربية المستوطنة للمغرب تزعم مكافحة الجفاف واستجلاب المطر بطقوس سحرية تعود إلى جذور تاريخها الوثني الضارب في عمق الجاهلية، وذلك بربط بعض فروع الأشجار في أذنان البقر ويصعدونها إلى جبل مرتفع ويضرمون النار فيها زعماً أنّهم يمتطرون من وقتهم¹¹³.

ومن الممارسات الخرافية أيضاً التي اعتنى بها إنسان المغرب، إضرام النار في شعلة يُسمونها العنصرة أو العنصلة، يقيمونها في الشوارع، ويقفزون فوقها، ويرشّ بعضهم بعضها بالماء تيمُّناً برمز الخصب والحياة زعماً أنّها تجنّبهم الجذب، في انتظار ما يسفر عنه المناخ¹¹⁴.

ولم تشر المصادر الموحدية المتوفرة إلى اتخاذ الخلفاء الموحدين إجراءات خاصة للحد من عمل المشعوذين، رغم أن بعض الخلفاء أشار إلى جميع المظاهر السيئة المنتشرة في الدولة، من دور البغايا وشر بالخمور وغيرها. والأكثر من هذا أن بعض الخلفاء والأمراء قد اتخذ لنفسه منجّماً خاصاً، كما حدث مع الأمير الموحي أبي الحسن السعيد، الذي نهاه منجّمه عن الخروج إلى إفريقية¹¹⁵.

2. 4 - تفسير الذهنيات الخرافية والإنحراف الديني :

ممّا سبق ومن خلال ارتباط ذهنية الإنسان المغربي بالمعتقدات الخرافية، هل يمكن القول أن المجتمعات المغاربية أمام الكوارث مثل الجفاف ونقص الغذاء وغيرها كانت تحاول إيجاد الحلول أم تستسلم لها¹¹⁶، وهل يجوز اتّهام الناس بعدم التبصّر والإنحراف عن جادة الدين.

لاشك أن بعض النّاس كانوا يميلون أحيانا إلى الإهمال ويستسلمون للقضاء والقدر، وبدل المواجهة ومحاولة إيجاد الحلول العقلانية، أو الصبر وانتظار الفرج، تجدهم ينقادون وراء الذهنيات الخرافية والحلول الماورائية المحرمة كالسحر والشعوذة، لكن لا يجب اتّهام جميع أوجل أفراد المجتمع بالتهاون والتقصير¹¹⁷.

و الملاحظ أنه لا يمكن فهم الذهنيات الخرافية التي تؤمن بالسحر والشعوذة من دون ربطها بأثر الجفاف وما يترتب عنه من مجاعات على طول الحقبة المدروسة، ذلك أن الطقوس المتّبعة تعكس رغبة دفيئة لتأمين الغذاء وتجنّب المهالك الناتجة عن الكوارث¹¹⁸.

إن استفحال هذه الظواهر الخرافية بين العامة والخاصّة يكشف عمق المضاعفات السلبية التي خلفتها الكوارث الدورية في المخيال الإجتماعي العام، لذلك ارتبطوا بالأشخاص المستشرفين للمستقبل لتهدئة هواجس الخوف من المصير المجهول.

وممّا يؤيد استفحال هذه الخرافات عرضها على أهل الفتوى¹¹⁹، حيث وردت مسألة في المعيار يُستشفّ منها الاعتقاد الخرافي في سقوط المطر، إذ سئل ابن لب¹²⁰ عن رجل دعا أن يُرفع المطر عن الخلق ثمانية أعوام ولا يرحمهم بقطرة¹²¹.

وعرض المسألة على الفقيه يُبيّن التناقض لدى بعض الناس بين الإيمان بالخرافة كاعتقاد مُحَرَّم في الإسلام وسؤال رأي الشرع في ذلك، ورغم أن إجابة الفقيه كانت واضحة وهي التحريم¹²² إلا أن العامة مارسها مثل الإحتفال لاستدراار عطف السماء وجعلها تجود بالأمطار زمن القحط، أو تقديم بعض الحيوانات للذبح أو الحرق اعتقادا بوجود الأرواح الشريرة فيها¹²³، ممّا يعكس تدني مستوى التدين في بعض الأوساط الشعبية¹²⁴.

هذه الذهنية الإستسلامية ناتجة عن علاقة واضحة بين ضعف الوازع الديني، وتدني مستوى الإدراك العلمي مقابل التعلّق بطقوس السحر والشعوذة¹²⁵، وهذا يرجعنا إلى الأسباب التي تقف وراء حدوث الكوارث الطبيعية والأوبئة، فباستثناء قلة من العلماء الذين حاولوا إعطاء تفاسير علمية لهذه الكوارث التي هدّدت سكان بلاد المغرب في العصر الوسيط، نجد معظم المفسرين ينساقون وراء التفسيرات الخرافية أحيانا والغيبية أحيانا أخرى. ويأتي ابن خلدون على رأس الذين حاولوا إيجاد تفسير منطقي لكثرة المجاعات وارتفاع أعداد الموتى خاصّة في الفترات المتأخّرة من حياة الدول¹²⁶، بينما معظم المؤرخين خلطوا بين التفسير العلمي والتفسير الخرافي لحدوث الكوارث والمجاعات، منهم ابن البناء العددي المراكشي¹²⁷، فرغم أنّه كان مهتمّا بالعلوم التجريبية إلا أنّه لم يسلم من التفكير الخرافي، ويتبيّن ذلك حينما يقوم بالربط بين المجاعة وبين ظواهر فلكية قد تحدث خلال أشهر مُعيّنة من السنة، ففي تعليقه للكوارث التي قد تحدث خلال شهر يناير

يقول: « وإن كسفت الشمس أو القمر في هذا الشهر يكون جوع ببلاد المغرب، ويقلّ المطر، ويكثر الثلج، وتموت الوحوش ويأتي الجراد »¹²⁸.

ومن هنا لا يمكن إلقاء اللوم فقط على العامة بحكم ثقافتهم المحدودة أصلاً ، وأمام شدة وطأة الجوع كان البعض منهم يبحثون عن أي وسيلة للنجاة حتى وإن دفعهم ذلك إلى الإرتقاء في أحضان من كانوا يستغلون الأوقات الصعبة والأزمات لتحقيق الكسب غير المشروع.

كما أن تردّد أخبار الكوارث في مصنفات التراث المغربي خلال العصر الوسيط يعكس مستوى التأثير الممارس على القطاع الفلاحي الذي تضرّر من الجفاف والجراد وغيرها من الجوائح ، حيث عجز الفلاح عن مواجهتها بالوسائل التقليدية فاتّجه نحو تطبيق وصفات متشعبة بثقافة الخرافة¹²⁹.

إذا تمكّن الجوع من الإنسان تغيير سلوكه، ولا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ لكي ينجو بحياته¹³⁰. ومن مضاعفات المجاعة التي أصابت بلاد المغرب في العقدين الثالث والرابع من القرن 6 هـ / 12 م أن اضطّر الناس إلى سلوكات غذائية شاذة كأكل خسيس الحيوان، كما اضطّر بعض السكان خلال مجاعة 632 هـ / 1235 م إلى أكل فضلاتهم، والمتاجرة فيها بالبيع والشراء¹³¹. وليس نادراً أن يصل الأمر بفئة الفقراء إلى أكل الميتة¹³². وقد حدث هذا خلال بعض المجاعات التي أصابت المغرب الإسلامي كلّها، منها مجاعة 285 هـ / 898 م التي أكل فيها الناس بعضهم بعضاً¹³³.

ولا يصل الإنسان المنكوب إلى هذا السلوك العدواني إلا بعد أن ينهار توازنه النفسي والاجتماعي ويتبعه تبدّل في الإحساس¹³⁴. يقول كاسترو في دراسته عن الجوع: «الجوع قوّة اجتماعية بوسعها أن تسلك بالجماعات البشرية مسالك غريبة يجعلها تنساق على غير هدى إلى غايات مجهولة لإشباع الجوع القاتل»، ويقول في موضع آخر: « فليس هناك كارثة أخرى تُحطّم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإنّ الفرد إذا استبد به لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ »¹³⁵.

هذه التحولات المفاجئة في سلوك الإنسان تحت تأثير الكوارث الطبيعية اعترف بها الدين، وفي هذا السياق استنبط الفقهاء أحكاماً تبيح وتجزئ المحظور لإنقاذ النفس البشرية باستهلاك ما يسد الرمق من الأطعمة المحرمة بما فيها الميتة وغيرها من المحرمات، لطرد شبح الموت شريطة أن لا يجد المضطر شيئاً حلالاً يتغذى به¹³⁶.

إذا يمكن إرجاع لجوء الناس في بلاد المغرب خلال العصر الوسيط إلى الحلول الغيبية المحرمة شرعاً من سحر وشعوذة وتنجيم وغيرها إلى عدة أسباب ، منها شدة المجاعة وتأثيراتها الكارثية على إنسان العصر الوسيط ، مما كان يدفعه إلى محاولة النجاة من الموت مهما كانت الوسائل، حتى وإن اضطّره الأمر إلى ارتكاب المحرمات، والوقوع في الكبائر، ولا شك أن اللجوء إلى هذا السلوك المرفوض شرعاً يختلف من شخص إلى آخر حسب درجة إيمانه وعقيدته. ومن هنا يمكن إضافة سبب آخر كان يدفع الناس إلى الإرتقاء

في أحضان السحرة والمشعوذين، ألا وهو ضعف الوازع الديني و تشوه العقيدة والإبتعاد عن منابع الدين الإسلامي الصحيح الذي يحرم اللجوء إلى غير الله خلال النكبات مهما كانت شدتها. كما أن ماشاع عن ممارسة بعض الخلفاء للطقوس الخرافية ربما شجع بعض الناس خاصة تحت ضغط الأزمات والكوارث على الإرتقاء في أحضان السحرة والمشعوذين.

الخاتمة :

تراوحت ردود فعل الإنسان المغربي في العصر الوسيط في مواجهة الجوع والسنوات العجاف بين الإستعداد الواقعي والعقلاني الذي ارتكز أساسا على ممارسة النشاط الزراعي ، ومحاولة تعلّم الطرق التقنية الأكثر نجاعة لإنجاح الموسم الزراعي وتحقيق المردودية الكافية التي تسمح بتخزين المنتج ، خاصة الحبوب تحسبا لحدوث المجاعات، وبين الحلول الشرعية عندما يطول أمد المجاعة ويتعذر مواجهتها بالطرق العقلانية، مثل التوبة من الذنوب والإكثار من الطاعات، اعتقادا منه أنها سبب تأخر الأمطار وحدوث الجفاف. وأداء صلاة الإستسقاء، ومساعدة المحتاجين والمتضررين من آثار المجاعات.

لكن على النقيض من ذلك لجأ بعض المغاربة في زمن المجاعات الشديدة إلى طرق غير شرعية مثل الإستعانة بالسحرة والمشعوذين والمنجمين، للتنبئ بأوقات سقوط الأمطار، وهذا راجع لعدة أسباب، لعل أبرزها هاجس الخوف من المجاعة ومضاعفاتها الخطيرة، وضعف الوازع الديني الذي كان يدفع بعض الناس إلى الإستعانة بالسحرة والمشعوذين بدل اللجوء إلى الله.

ولعل ما زاد في تعقيد الأمور هو أن بعض الخلفاء كانوا يمارسون الطقوس الخرافية مما دفع بعض الناس إلى الإقتداء بهم ، كما أن عجز النخبة عن إيجاد تفسيرات علمية معقولة للكوارث الطبيعية دفع بعض الناس إلى البحث عن مخرج مهما كلفهم الأمر.

الهوامش

¹- الفيروزبادي ، القاموس المحيط ، ج 3، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة 1426 هـ/ 2005 ص 15.

²- ابن عذاري أبو العباس أحمد ، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج 1، تحقيق عواد بشار معروف ومحمود بشار عواد ، ط 1، دار الغرب الإسلامي ، تونس ، 1434 هـ / 2013 ، ص 254- 255 م.

³- ابن الزيات التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي ، تحقيق أحمد التوفيق، ط 2 مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، 1997 م ، ص 245 .

⁴- مثل مجاعة 395 هـ / 1005 م بإفريقية التي ذهب فيها مال الغني ، وغلت الأسعار، وعدمت الأقوات (ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 280).

⁵ - يربط ابن خلدون بين ظهور المجاعات التي تؤدي بحياة الناس ونهاية وأفول الدول (ابن خلدون عبد الرحمان المقدمة ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2001م ، ص 301).

بولقطين حسين ، جوائح وأوبئة مغرب عصر الموحدين ، منشورات الزمن ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2000م -⁶ ، ص 66 .

⁷ - المالكي أبو بكر ، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساکهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، ج 2 ، حققه بشير البكوش ، راجعه محمد العروسي المطوي ، ط 2 ، دار الغرب الإسلامي النشرسي أحمد بن يحيى ، المعيار المغرب عن فتاوى علماء إفريقية ، بيروت ، 1414هـ / 1994م ، ص 129 - والأندلس و المغرب ، خرج جماعه من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1401 هـ / 1984 م ، ص 164 - الدرجيني أبو العباس ، طبقات المشائخ بالمغرب ، ج 2 ، حققه وقام بطبعه ابراهيم طلاي ، ط 2 ، بدون تاريخ ، ص 309 .

⁸ - الشماخي أحمد بن سعيد ، كتاب السير ، تحقيق أحمد بن سعود السيادي ، وزارة التراث القومي والثقافة ج 1 ، سلطنة عمان ، 1407هـ / 1987 م ، ص 176 - 177 - ابن الزيات ، المصدر السابق ، ص 429 .

⁹ - الهلالي محمد ياسر ، أثر القحط والمجاعات والأوبئة على الأنشطة الاقتصادية في المغرب الأقصى خلال أواخر العصر الوسيط ، الأيام الوطنية العاشرة ، المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب ، الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، الجديدة المغرب ، أكتوبر ، 2002 م ، ص 169 - 170 .

بلعربي خالد ، <<المجاعات والأوبئة بتلمسان في العهد الزياني>> ، دورية كان التاريخية ، العدد الرابع ، -¹⁰ ، 2009 ، ص 22 .

¹¹ - مزدور سمية ، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ / 1192-1520م) ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط ، قسم التاريخ والآثار ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة منتوري قسنطينة ، 1430-1429هـ / 2008-2009 م ، ص 208 .

¹² - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 281 - 282 .

¹³ - سيدي موسى محمد الشريف ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في بجاية من عصر الموحدين إلى الإحتلال الإسباني (6-10هـ / 12 - 16 م) ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط ، قسم التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر ، 1430 - 1431 هـ / 2009 - 2010 م ، ص 131 .

¹⁴ - ابن العوام الإشبيلي أبو زكريا ، كتاب الفلاحة ، مطبعة بريل ، مدريد ، 1802م ، ص 99 - النشرسي ، المصدر

- السابق ، ج 5 ، ص 116.
- ¹⁵ - البرزلي أبو القاسم ، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، ج 4، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2002 م ، ص 132-133 - الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 129 - القاسم بن سلام أبو عبيد ، كتاب الأموال ، تحقيق سيد بن رجب أبو أنس ، ط 1 ، 1428 هـ / 2007 م ، ص 378 - 385 - ، الماوردي أبو علي ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط 1 ، مكتبة دار ابن قتيبة ، الكويت ، 1409 هـ / 1989 م ، ص 248 - 258.
- ¹⁶ - جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والإجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و 4 هـ / 9 و 10 م ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، بدون تاريخ ، ص 17.
- ¹⁷ - الماوردي ، المصدر السابق ، ص 231 - 232 .
- ¹⁸ - البرزلي ، المصدر السابق ، ج 4 ، ص 451 .
- ¹⁹ - علام عبد الله ، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، سحب الطباعة الشعبية للجيش الجزائري ، 2007 م ، ص 257 .
- ²⁰ - البحيرة في الإصطلاح المغربي تعني البستان (مؤلف مجهول ، الإستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة آفاق عربية ، العراق ، 1985 م ، ص 187) .
- ²¹ - عز الدين عمر موسى ، الموحدون في الغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، ص 183 .
- ²² - المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ضبطه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، ط 1 ، مطبعة الإستقامة ، القاهرة ، 1368 هـ / 1949 م ، ص 287 .
- ²³ - الذهبي شمس الدين ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون ، ج 7 ، ط 2 ، مؤسسة الرسالة ، 1405 هـ / 1985 م ، ص 15 .
- ²⁴ - علوي حسن حافظي ، الفلاحة والتقنيات الفلاحية بالعالم الإسلامي في العصر الوسيط ، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء ، منشورات عكاظ ، 2011 ، ص 6 .
- ²⁵ - ابن العوام ، المصدر السابق ، ص 5 - 6 .
- ²⁶ - عبد الله علام ، المرجع السابق ، ص 257 .
- ²⁷ - علوي حسن ، المرجع السابق ، ص 5 .
- ²⁸ - الطاهري أحمد ، الفلاحة والتقنيات الفلاحية الأندلسية بين التراث العلمي المحفوظ والدراسات التاريخية ، تحت إشراف حسن حافظي علوي ، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، منشورات عكاظ ، 2011 ، ص 183 .

- ²⁹- حافظي حسن ، المرجع السابق ، ص 65 .
- ³⁰- غريب بن سعد ، تقويم قرطبة ، حققه رينهارت دوزي ، ونشره بليدن بريل ، 1961 م ، ص 87 .
- ³¹- حافظي حسن ، المرجع السابق ، ص 70 .
- ³²- مؤلف مجهول ، المصدر السابق ، ص 137 - 138 ، 140 ، 180 - 181 .
- ³³- نفسه ، ص 137 ، 138 ، 140 ، 180 ، 181 .
- ³⁴- بن عميرة محمد ، <<توصيل المياه وتخزينها ببلاد المغرب من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة الموحدين>> ، مجلة دراسات تراثية ، العدد 2 (الجزائر) ، 2008 ، ص 150 .
- ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 218 - السلاوي ، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج 2 ، دار الكتاب
- ³⁵
- الدار البيضاء ، 1954 م ، ص 177 - 178 م .
- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج 3 ، حققه إحسان عباس ، دار صادر
- ³⁶
- بيروت ، بدون تاريخ ، ص 15 - 16 .
- ³⁷- ابن صاحب الصلاة عبد المالك ، المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، تحقيق عبد ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1964 م ، ص 435 .
- الشنيتي محمد البشير ، التغيرات الإقتصادية والإجتماعية في المغرب أثناء الإحتلال الروماني ، المؤسسة
- ³⁸- الوطنية
- للكتاب ، الجزائر ، 1984 م ، ص 89 - الإدريسي الشريف ، المغرب وأرض السودان والمغرب (ق 6 هـ / 12 م) مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل ، 1863 م ، ص 98 -
- الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 5 ، ص 89 .
- ³⁹- مثل قسنطينة التي كانت تُخزّن فيها الحبوب لمدة طويلة قد تصل إلى مائة سنة لبرودتها واعتدال هوائها (الإدريسي ، المصدر السابق ، 98) .
- ⁴⁰- البياض عبد الهادي ، الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق 6-8 هـ / 12 - 14 م) ، دار الطباعة ، بيروت ، ص 215 .
- ⁴¹- ابن العوام ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 334 .
- ابن الأثير عز الدين ، الكامل في التاريخ ، ج 6 ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ،
- ⁴²

بيروت ، لبنان ، 1987م ، ص 489.

⁴³ - البياض عبد الهادي ، المرجع السابق ، ص 197.

⁴⁴ - ابن العوام ، المصدر السابق ، ص 679 .

⁴⁵ - الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 6 ، ص 230 .

⁴⁶ - البياض ، المرجع السابق ، ص 198 .

⁴⁷ - نفسه ، ص 217 .

⁴⁸ - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 114 .

⁴⁹ - التادلي ، المصدر السابق ، ص 278.

⁵⁰ - الوزان الحسن ، وصف إفريقيا ، ج 1 ، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط 2 ، دار الغرب

الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1983 م ، ص 184.

⁵¹ - الإدريسي ، المصدر السابق ، ص 229.

⁵² - ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 9 ، ص 566 .

⁵³ - السلاوي ، الإستقصا ، ج 2 ، ص 122 .

⁵⁴ - ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص 148.

⁵⁵ - عز الدين عمر موسى ، المرجع السابق ، ص 203 .

⁵⁶ - ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص 163 – 164 .

⁵⁷ - ابن القطان أبو الحسن المراكشي ، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، درسه وقدم له وحققه محمود مكي علي ، دار الغرب الإسلامي ، ص 198 – 199 .

⁵⁸ - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 261 .

⁵⁹ - عز الدين عمر موسى ، النشاط الإقتصادي في المغرب الإسلامي ، ص 185 .

⁶⁰ - Gouirguete Mahdi ,La gestion des crises de subsistance par les souverains Almohades ,Presses

Université de Rennes , p 23.

ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج 10 ، ص 128 - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 275 – ابن خلدون ،⁶¹

العبر ، ج 6 ، ص 245 .

⁶² - ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 284 .

⁶³ - نفسه ، ص 382 .

⁶⁴ - نفسه ، ص 467 .

⁶⁵ - Ghourigate, op . cit , p 32

⁶⁶ - البزاز محمد الأمين، تاريخ الاوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كلية الآداب

والعلوم الإنسانية ، الرباط ، ص 99.

⁶⁷ - البياض ، المرجع السابق ، 284 .

⁶⁸ -- نفسه ، ص 285 .

⁶⁹ - البزاز ، المرجع السابق ، ص 349

⁷⁰ - بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 34 .

⁷¹ - الدرجيني ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 287 .

⁷² - نفسه ، ص 293 .

⁷³ - ابن الأزرقي ، المصدر السابق ، ص 69.

⁷⁴ - الشماخي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 30 .

⁷⁵ - Sebti (A) , présence des crises dans la chronique dynastique marocaine : entre la

narration et les signes , cahiers d'études Africaines , vol 30 . n 119 , 1990 , p 240

mrabet(Abdellatif) , occupation du sol , peuplement du maghreb antique et médiéval

⁷⁶ -

actes du 3 eme colloque international , sousse , les 5 – 6 – 7 mai , 2016 , p 298

⁷⁷ - ابن أبي زيد القيرواني، رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومعها ايضاح المعاني على رسالة القيرواني ، كتبها أحمد

مصطفى قاسم الطهطاوي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير ، القاهرة ، ص 74 .

⁷⁸ - الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 164 .

⁷⁹ - أستيتو محمد، <<من وسائل مواجهة الفقراء للمجاعات في المغرب خلال العصر الحديث>>، نماذج من

القرنين 16 و 17 م <<، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، جامعة محمد الخامس ، العدد 13

، 1993 م ، ص 251 .

⁸⁰ - نفسه ، ص 252 .

⁸¹ - مزدور ، المرجع السابق ، ص 151 .

⁸² - البياض ، المرجع السابق ، ص 284 .

⁸³ - إستيتو ، المرجع السابق ، ص 252 .

⁸⁴ - ابن الزيات ، المصدر السابق ، ص 471 – 472 .

⁸⁵ - نفسه ، ص 151 .

⁸⁶ - نفسه ، ص 102 .

⁸⁷ - نفسه ، ص 139 .

الوقف : جاء في معجم اللغة العربية أن الوقفة هي يوم الوقوف بعرفة في الحج ، وفي متن اللغة الوقفة هي كل
⁸⁸ -

عقب لفّ على قوس ، ووقوف القوس: أوتارها المشدودة في يدها ورجلها (ابراهيم أنيس وآخرون ، المعجم الوسيط ، ط 4 ، مجمع اللغة العربية ، مكتبة الشروق الدولية ، ط 4 ، 2004 ، ص 801).

⁸⁹ - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 284 .

⁹⁰ - ابن الزيات ، المصدر السابق ، ص 138 .

⁹¹ - البياض ، المصدر السابق ، ص 287 .

⁹² - ابن الزيات ، المصدر السابق ، ص 123 – 124 .

⁹³ - البزّاز ، المرجع السابق ، ص 349 – 350 .

⁹⁴ - المالكي ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 183 - القاضي عياض ، تراجم أغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، تحقيق محمد الطالبي ، مع مقدمة وفهارس ، نشر الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1968 م ، ص 128 .

⁹⁵ - بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 35 – 36 .

⁹⁶ - الغبريني أبو العباس، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، حققه وعلق عليه عادل نويّض ، منشورات دارالآفاق الجديدة ، بيروت ، 1979 ، ص 126 .

⁹⁷ - ابن الزيات ، المصدر السابق ، ص 429 - (بخي فتحي ، عامة بجاية خلال العصر الوسيط ، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في تاريخ وحضارة المغرب الاسلامي، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية ، جامعة الدكتور مولاي الطاهر، سعيدة ، السنة الجامعية، 2017 – 2018 ، ص 56).

⁹⁸ - مزدور ، المرجع السابق ، ص 149 .

⁹⁹ - لا شك أن الثقافة المحدودة وضعف الوازع الديني والأزمات الصعبة، كلّها عوامل تقف وراء هذه العقلية

المنافضة للعقيدة الإسلامية لدى العوام في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ، فمثلا ارتبط الاعتقاد الخرافي بجوائح الجراد حيث زعم سكان لُورقة بالأندلس أنه كان فيها جرادة من ذهب طلبا لدفع مضار الجراد ، فسقرت من هناك فلم يزل الجراد من حينئذ عندهم فاشيا. (الحميري محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في أخبار الأقطار ، حققه إحسان عباس ، ط 2 ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984 ، ص 512 – 513). ورغم أن

المصادر لم تشر إلى مثل هذا الاعتقاد في بلاد المغرب إلا أن تشابه الظروف الطبيعية وتعرض المنطقة لغزو الجراد وأثرها السلبي على الإنتاج الزراعي يجعل بدون شك هذا الاعتقاد منتشرا في وسط المغاربة العوام .¹⁰⁰ -بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 48 .

¹⁰¹ -المراكشي عبد الواحد ، المصدر السابق ، ص 243 .

¹⁰² -حاجي خليفة ، كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون ، دار العلوم الحديثة ، بيروت ، د،ت ، ص 141 .

¹⁰³ -ابن خلدون ، المصدر السابق، 496 - 504 .

¹⁰⁴ - البيّاض ، المرجع السابق ، ص 136 .

¹⁰⁵ - قبيلة من بطون المصامدة ، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تُحصّر. استوطنوا منطقة الريف بالمغرب الأقصى ، وكان في غمرة متنبئين . (ابن خلدون ، ديوان العبر ، ج 6 ، ص 280 - 281) .

¹⁰⁶ - صاحب الإستبصار ، ص 191 .

-ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ج 6 ، ضبط
107

المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1421 هـ /
2000 م، ص 254 - 255.

- نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال : سمعت
108

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أخاف على أمتي ثلاثا . استسقاء بالنجوم ، وحيف السلطان ، وتكديبا
بالقدر- (أنظر التميمي محمد بن عبد الوهاب ، كتاب التوحيد حق الله على العبيد ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، لبنان ص 92) .

علم التنجيم قديم العهد، طبع بطابع حضارات عالمية تقادمت عليها العهود في بلاد الرافدين والنيل والصين

¹⁰⁹

والهند والروم .ولم يكن العرب في هذا المجال بدعا من الأمم وعلى الرغم من موقف الإسلام المناهض له فقد
استمر التعامل مع التنجيم طيلة امتداد العصور الإسلامية ، وقد ساعد على ذلك شيوع ظاهرة الصراعات
المذهبية والسياسية بين الفرق الإسلامية مما عزز القول بأثر النجوم في مسار الدول وأعمال الملل . وقد بلغ من
اهتمام صفوة الخاصة بالتنجيم أنه لم يكن أحب إلى قلب بعض الخلفاء من إحاطة بلاط الخلافة بالمنجمين ،
وذلك للإطمئنان على مستقبل منصبه بسبب اشتداد الصراع حول الحكم وكثرة الدسائس (عطية محمد

عطية ، الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم ، ط 1 ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع ، الأردن ، عمان ، 2011 ، ص 411) .

¹¹⁰-البياض ، المرجع السابق ، ص 137 .

¹¹¹- نفسه ، ص 138 .

قال ابن خلدون : (ورياضة السحر كله إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين ¹¹²)

وأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل ، فهي لذلك وجهة إلى غير الله وسجود له ، والوجهة إلى غير الله كفر فلهذا كان السحر كفرا والكفر من مواده وأسبابه ..ولهذا اختلف الفقهاء في قتل الساحر هل لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد في الأكوان والكل حاصل منه .(ابن خلدون ، المقدمة ، ص 498)

التيجاني أبو محمد ، رحلة التيجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب الدار العربية للكتاب ، ليبيا -تونس ¹¹³ ،-

1981م ، ص 314 – 315 .

¹¹⁴- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، اعتنى بتحقيقه ودراسته الفنية واللغوية والتاريخية والإجتماعية ، ليفي بروفنسال مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية ، القاهرة ، 1955م ، ص 124 . ابن عذاري ، المصدر السابق ، ص 385- ¹¹⁵ .

Berlioz (J) , les lendemains des catastrophes naturelles au moyen age in :

- ¹¹⁶

L'homme face aux calamités naturelles de l'antiquité au moyen age , Actes du colloque de villa Kyrilos à Beaulieu sur mer , les 14 et 15 octobre , 2005 , paris , académie des inscriptions et belles lettres , p 166.

¹¹⁷-برنشفيك روبر ، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من ق 13 إلى نهاية القرن 15 م ، ج 2 ، نقله إلى العربية حمادي الساحلي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1988م ، ص 286.

¹¹⁸- البياض ، المرجع السابق ، ص 137 .

¹¹⁹- الونشريسي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 395.

¹²⁰-- هو فرج بن أحمد بن لب ، أبو سعيد التغلبي الغرناطي (701 – 782 هـ / 1302 – 1381 م) ، نحوي ، من الفقهاء العلماء ، انتهت إليه رئاسة الفتوى في الأندلس ، وُلِّي الخطابة بجامع غرناطة (خير الدين الزركلي ، كتاب الأعلام ، ج 5 ، ط 5 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، 1980 ، ص 140) .

- بوجنان خضرة ، ابن لب وفتاواه : عرضا ودراسة، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الشريعة ، تخصص
121

الفقه وأصوله ، قسم الشريعة، كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإنسانية ، جامعة أدرار ، السنة الجامعية ،
2004 – 2005 ، ص 109.

¹²² - من ذلك ما جاء في ثلاث رسائل في الحسبة، رسالة ابن عبد الرؤوف، عن محاربة بدعة المشي أمام الجنائز
بالإستغفار والتكبير فإنه مكروه ، وإنما أحدث ذلك وابتدعه أهل الجاهلية ، وجاءت الآثار بكراهية الإنذار في
الأسواق والطرق ، ولا بأس على أبواب المساجد ، وعلى خاصة إخوان الميت ، وذلك أن الإنذار ربهما من البغي ،
والبغي من أمر الجاهلية، وينهى عن اتباع الجنائز بالنار والنياحة (ثلاث رسائل في الحسبة ، ص 76-77) . (7) .

¹²³ - البياض ، المرجع السابق ، ص 142 .

¹²⁴ - نفسه ، ص 145 .

¹²⁵ - البياض ، المرجع السابق ، ص 135 .

¹²⁶ - بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 30 .

- أحمد بن محمد ابن البناء العددي المراكشي، عالم مغربي، ولد بمراكش سنة 654 هـ / 1256 م، عاصر فترة
127

حكم الدولة المرينية ، وتوفي بمراكش سنة 721 هـ / 1321 م . سعي بابتناء نسبة إلى جدّه الذي امتن
البناء. قضى معظم حياته في مراكش ثم انتقل إلى فاس حيث درس الطب والفلك والرياضيات ، وبرز خاصة في
الهندسة . له عدّة مؤلفات منها كتاب أحكام النجوم . (ابن البناء وكتابه مراسم طريقة في فهم الحقيقة من
حال الخليقة ، تحقيق ودراسة شوقي علي عمر ، كلية الدراسات العربية والإسلامية ، جامعة القاهرة ، فرع
الفيوم ، 1416 هـ / 1996م ، ص 9 – 11) .

ابن البناء العددي المراكشي ، رسالة في الأنواء ، اعتنى بنشرها وتصحيحها الدكتورة ب – ج ، رنو ، باريس، 1948
128

، ص 3 - أنظر بولقطيب الحسين ، المرجع السابق ، ص 32 .

¹²⁹ - البياض ، المرجع السابق ، ص 146 .

¹³⁰ - نفسه ، ص 313 .

¹³¹ - ابن عذاري، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 452 .

الدباغ أبو زيد ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج 1 ، أكمله وعلق عليه التنوخي أبو الفضل ،¹³² -تحقيق

محمد أحمددي أبو النور ، محمد ماضور ، مكتبة الخانجي بمصر ، المكتبة العتيقة بتونس، ص 262 – البرزلي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 638.

Rosenberger (Bernard), Cultures complémentaires et nourritures de substitution , au Maroc (15 – 18 siècle), Annales .Economies , sociétés , civilisations , 35 e année , n 3-4 , 1980 ,481

¹³³ - ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص 97 - المالكي ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص 262 .

¹³⁴ - ديكاسترو جوزيه ، جغرافية الجوع ، ترجمة يحي الراشدي ، دار الهلال ، ص 61 .

¹³⁵ - نفسه ، ص 158 .

¹³⁶ - الزحيلي وهبة ، نظرية الضرورة الشرعية مقارنة مع القانون الوضعي ، مؤسسة الرسالة ، ط 4 ، 1405/

1985 م ، ص 69 – 70